الباب السادس

طراز العصر الأيوبى فى مصر وسوريا

(٥٦٧ – ٦٤٨ هـ) (١١٧١ – ١٢٥٠ م)

نشأ « صلاح الدين الأيوبى » الكردى الأصل فى بلاط « نور الدين زنكى » حاكم دمشق ، وجاء إلى مصر فى صحبة عمه « أسد الدين شركوه » قائد الجيش السورى ، الذى أرسله « نور الدين » لنصرة « شاور » وزير الخليفة الفاطمى « العاضد » على الوزير الفاطمى « ضرغام » الذى استنجد « بعمورى » حاكم فلسطين . ولما انتصر الجيش السورى على الجيش الصليبى كافأه الخليفة بتقليده منصب الوزارة فى مصر .

وانتهز « صلاح الدين » الطموح – السنى المذهب – فرصة مرض العاضد ونادى باسم الخليفة العباسى فى خطبة الجمعة بدلا من اسم الخليفة الفاطمى وتمكن بعد موت « العاضد » آخر الخلفاء الفاطميين من الاستقلال بحكم مصر فى عام ٥٦٧ هـ – ١١٧١ م ، واتخذ لنفسه لقب السلطان وأسس الأسرة الأيوبية كما تمكن بعد موت « نور الدين » فى عام ٥٦٩ هـ – ١١٧٤ م من ضم دمشق إلى مملكته واستولى على حلب فى نفس العام . وفى خلال عشر سنوات دانت له سوريا والعراق ، وفى عام ٥٨١ هـ – ١١٨٧ م تمكن من الاستيلاء على أورشليم من المسيحيين ، واسترد من النورمنديين حكم طرابلس ، وبذلك تكونت لديه مملكة متسعة شملت أيضاً بلاد الحجاز واليمن .

توفى « صلاح الدين » فى دمشق فى عام ٥٨٩ هـ – ١١٩٣ م ، فوزعت الدولة بين أفراد أسرته مما أدى إلى إضعافها . وكانت المراكز هى : القاهرة – دمشق – حلب . وانتهى حكم الدولة الأيوبية لمصر فى عام ٦٤٨ هـ – ١٢٥٠ م بعد أن توفى آخر ملوكهم الصالح نجم الدين أيوب ، واستبدل بحكام جدد هم المماليك . كما استولى المغول على العراق وسوريا فيما بعد .

كانت لانتصارات صلاح الدين الحربية على الصليبيين شأن كبير فى ظهوره كزعيم مهم فى بلاد العالم الإسلامى ، كما كان لحكمه أثر كبير فى مصر من الناحية الدينية حيث أرجع المذهب السنى مرة ثانية إليها ، وبذلك توثقت علاقتها مع الدول التى تدين بهذا المذهب . ولقد تميز عهد الأيوبيون بجيش قوى يشمل خليطاً من الفرسان العرب والترك والأكراد .

ولقد صارت القاهرة فى العصر الأيوبى المركز الرئيسى فى مصر من الناحية الاقتصادية والفنية ، وامتدت المبانى فى القاهرة حتى اتصلت بالفسطاط ، وزخرت بالمبانى العالية التى ارتفعت إلى أربعة طوابق [١] . وكانت القاهرة قبل ذلك تقتصر على كونها مقر بلاط الخلفاء الفاطميين ، أما الزعامة الاقتصادية فكان مركزها مدينة الفسطاط فى عصر الفاطميين والعصور السابقة لهم .

العمارة :

لم يخلف لنا العصر الأيوبى فى مصر عمائر دينية كثيرة وذلك لانشغالهم بالحياة العسكرية . واقتصر ما عثر عليه على بعض المدارس والأضرحة . ويرجع الفضل إلى العصر الأيوبى فى التطور الذى طرأ على شكل المئذنة التى عرفت باسم المنخرة .

المدارس والأضرحة :

يرجع اهتمام الأيوبيين ببناء المدارس إلى رغبتهم فى التخلص من المذهب الشيعى والدعوة للمذهب السنى . ووصل عددها فى عام ٦٠٣ هـ — ١٢٠٦ م إلى ١٣ مدرسة . ولقد نقل « صلاح الدين » طراز المدارس السلجوقية المعروف فى سوريا إلى مصر . فكان تصميم المدرسة ينحصر فى المبنى المستطيل الذى يتوسطه فناء كبير مربع ، ويتوسط كل جانب من جوانبه الأربعة إيوان كبير . وبذلك لم يخرج تصميم المدرسة عن شكل الجامع المتعامد التقليدى المعروف . ولقد شيدت فى مصر فى أوائل العصر الأيوبى مدارس ذات إيوانين ثم ظهر بعد ذلك الطراز

---

(١) الباز العرينى « مصر فى عهد الأيوبيين » ص ٢٦٢

ذو الإيوانات الأربعة ، ومن هذه المدارس المدرسة الناصرية والمدرسة الصلاحية ، كذلك مدرسة « الصالح نجم الدين أيوب » الملحقة بضريحه[١]

ومن العمائر الدينية فى حلب مدرسة صلاح الدين ٥٨٧ هـ (١١٩٣م) والمسجد الكبير الملحق بالقلعة ٦١٠ — ٦١١ هـ (١٢١٣ — ١٢١٤ م) .

ومن أشهر الأضرحة الأيوبية فى مصر ضريح الإمام الشافعى الذى بنيت قبته فى عهد السلطان « الكامل محمد » (٦٠٨ هـ — ١١١٢م). ولقد جددت قبة الضريح بعد ذلك فى عهد بعض الحكام المماليك ، مرة فى عهد السلطان « قايتباى » ، ومره أخرى فى عهد الملك الأشرف « قنصوه الغورى »[٢] . وبالرغم من هذه التغيرات إلا أن تصميم القبة الأيوبى الأصل يمكن رؤيته .

يتكون ضريح الإمام « الشافعى » من حجرة كبيرة مربعة تعلوها قبة عالية محززة ، ويفصل القبة عن جدران المربع دائرة اسطوانية تزخر بالحنايا أو المقرنصات فى الأركان الأربعة (١٤٩) وتتكون حنايا الأركان من ثلاثة صفوف ، خمسة فى الصف الأول ، وسبعة فى الصف الثانى ، وثلاثة فى الصف الأخير . وهنا نلاحظ التطور الذى أدخله الأيوبيون فى بناء القبة حيث زاد عدد صفوف المقرنصات عما كانت عليه فى العصر الفاطمى إذ كانت تتكون من صفين فقط . ولقد استمر هذا التصميم يتبع فى أضرحة العصر المملوكى فى مصر لمدة ثلاثة قرون .

ويرجع التابوت الخشبى الجميل الموجود بضريح الإمام الشافعى إلى فترة التجديد الذى أجراه صلاح الدين الأيوبى . وتتكون زخارفه من أشكال هندسية بها زخارف لوحدات نباتية دقيقة ، وتكون هذه المناطق الهندسية أشكالا نجمية .

ومن خصائص الطراز الأيوبى أيضاً العقود المحارية التى تزخرف الجدران الداخلية. ويستمر ظهور هذا الأسلوب الأيوبى فى مقابر الخلفاء العباسيين التى شيدت فى القاهرة فى عصر المماليك .

---

(١) العمارة الإسلامية فى مصر ، للدكتور كمال الدين سامح ص ٦٢ ، ص ٦٣

(٢) العمارة الإسلامية فى مصر للدكتور كمال الدين سامح ص ٣٤

العمارة الحربية :

امتاز العصر الأيوبى فى مصر وسوريا بالعمائر الحربية ، وذلك لتخلل عهد هذه الدولة بسلسلة من الحروب المستمرة . فاهتم الأيوبيون ببناء القلاع والحصون والمعسكرات . ومن العمائر الدفاعية التى أنشأها صلاح الدين بمصر سور يحيط القاهرة ومصر (القطائع والعسكر والفسطاط) ، وقلعة الجبل المشيدة داخل هذا السور الذى أتم بناءها أخوه العادل ، ولقد أشرف على تشييدها الأمير بهاء الدين قراقوش . كذلك اهتم صلاح الدين بتحصين سوريا والقدس .

ولقد أدخلت تعديلات وإضافات على قلعة حلب التى شيدت عام ٦٠٧هـ — ١٢١٠م فى عصر الأتابكة . وكانت أول إضافات فى عهد أول سلطان أيوبى لمدينة حلب وهو الظاهر غياث الدين غازى (٥٨٢ — ٦١٣ هـ) (١١٨٦ — ١٢١٦م)[١] ، حيث أحيط المدخل بزوج من الأبراج الضخمة التى يتصل بعضها ببعض بواسطة كوبرى طويل ، به صف من العقود العالية المدببة (ش ١٥٠) . ويظهر بهذه القلعة ابتكارات معمارية توصل إليها المهندسون ليوفروا لها التحصينات اللازمة . وتعد قلعة حلب من أقوى التحصينات التى عرفت فى العالم الإسلامى وأمتنها .

أما من جهة الزخارف المعمارية ، فنجد أن الأيوبيين كانوا يكسون الجدران بأشرطة من الزخارف الجصية التى تتكون من عناصر نباتية دقيقة وزخارف مجردة . وتتميز الزخارف الخارجية الموجودة بالقبة الأيوبية ببساطتها ، وتقتصر على زخارف هندسية فى نهاية الشريط الجصى الموجود بالجزء العلوى للجدران . كما يوجد فى الجزء العلوى الذى يحمل القبة محاريب محارية ذات عقود مثلثة مزينة بزخارف جصية . وينتهى هذا بجدار من أعلى به زخارف مثلثة مسننة . وتظهر الزخارف الحجرية فى واجهة مدخل مدرسة الصالح نجم الدين أيوب .

---

(١) جروبه ا « العالم الإسلامى » ما قبله ص ٩٩

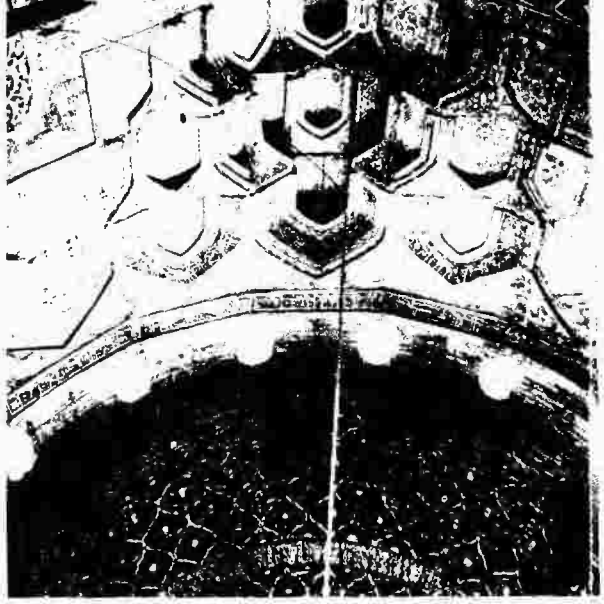

(شكل ١٤٩)
ضريح الإمام الشافعى ، القبة من الداخل ، القاهرة ، القرن ٧ هـ — ١٣ م ، العصر الأيوبى .

(شكل ١٥٠)
قلعة مدينة حلب بالشام ، ٦٠٧ هـ — ١٢١٠ م . العصر الأيوبى .

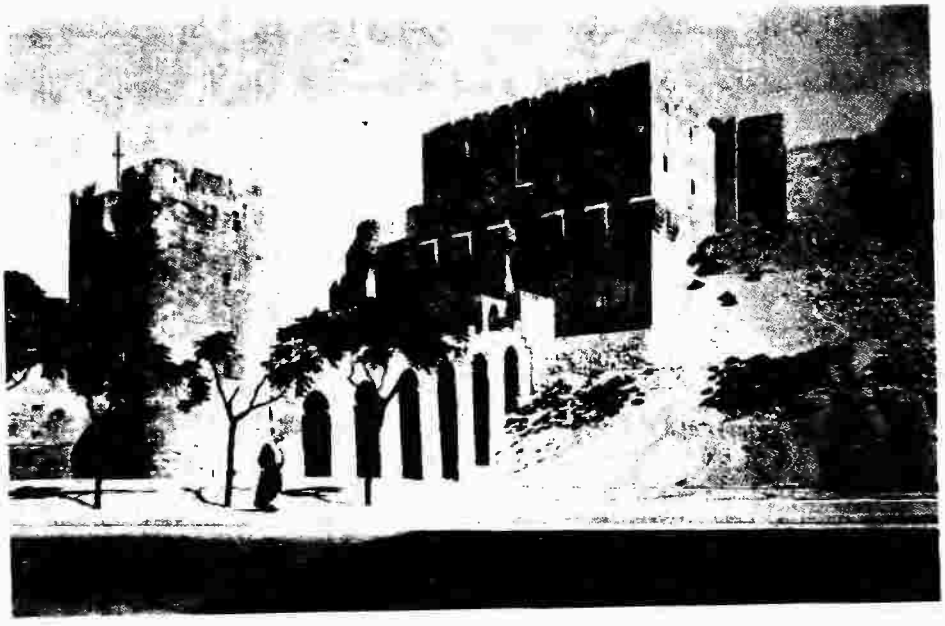

(شكل ١٥١)
طشت من النحاس المكفت بالفضة باسم السلطان الصالح نجم الدين أيوب ، ٦٣٨ هـ - ٦٤٧ هـ ، ١٢٤٠ م - ١٢٤٩ م . سوريا ، حالياً بمجموعة خاصة فى بروكسل بلجيكا .

الفنون الصغيرة :

المعادن :

ترك الأيوبيون التقاليد السلجوقية التى اتبعت فى عصر الأتابكة تجرى مجراها ، كما شجع الحكام الأيوبيون فى سوريا ومصر عمال الموصل المهرة على هجرة بلادهم فى القرن الثالث عشر الميلادى لينشئوا مراكز جديدة فى دمشق وحلب وسوريا . وبذلك ازدهرت صناعة تكفيت الأوانى المعدنية بشرائح الفضة فى هذه المراكز . ويلاحظ أن أسلوب هذه الصناعة فى المراكز الجديدة كان استمراراً لما كان متبعاً فى الموصل ، حيث نجد أنه بالرغم من أن عقيدة الأيوبيين الدينية كانت المذهب السنى المتشدد ، إلا أنهم لم يمانعوا فى زخرفة الأوانى المعدنية بالأشخاص الآدمية . فتظهر من العصر الأيوبى تحف معدنية غاية فى الدقة والإتقان مزخرفة بوحدات آدمية وحيوانية .

ويلاحظ أن الأشخاص المرسومة بحجم صغير فى أوانى السلاجقة والأتابكة ، يزداد حجمها كبراً فى الأوانى الأيوبية التى كبر حجمها أيضاً . وتشغل الوحدات الآدمية الكبيرة السطح كله تقريباً ، كما تنقش أيضاً هذه الزخارف على السطح الداخلى للإناء . وتتميز هذه الوحدات الآدمية بحركة وحيوية لم تكن معروفة فى الزخارف الآدمية الجامدة السلجوقية والتى ظهرت أيضاً فى أوانى عهد الأتابكة . ومن أجمل الأمثلة على ذلك طشت من النحاس مكفت بالفضة موجود ببروكسل وعليه اسم السلطان الصالح أيوب حاكم مصر وسوريا (٦٣٨ — ٦٤٧هـ) (١٢٤٠ — ١٢٤٩م) . ويلاحظ أن قوام الزخرفة فى هذه القطعة ، عبارة عن أشرطة من الزخارف الآدمية والحيوانية (ش ١٥١) ، تصور موضوع الصيد وأشخاص يمارسون لعبة الصولجان ، ونلاحظ رسم هالات حول رؤوس هذه الأشخاص . وبالإضافة إلى هذه الزخارف الآدمية توجد زخارف نباتية وخطية . ولقد ظهرت موضوعات مسيحية فى زخارف هذا الإناء ، ولذلك يرجح أنه صنع خصيصاً لبعض الحكام المسيحيين فى الفترة التى اصطلح فيها الحكام الأيوبيون فى دمشق مع الصليبيين .

(شكل ١٥٢)
مخطوط مقامات الحريرى ، أبو زيد يخطب فى الحجاج ، ٦١٩ هـ - ١٢٢٢ م ، العصر الأيوبى فى سوريا حالياً بالمكتبة الأهلية بباريس .

(شكل ١٥٣)
مخطوطة كليلة ودمنة ، دمنة يخاطب الأسد ملك الغابة ، ٥٩٧ هـ - ٦٢٠ هـ ١٢٠٠ م - ١٢٢٥ م ، العصر الأيوبى فى سوريا ، حالياً بالمكتبة الأهلية بباريس .

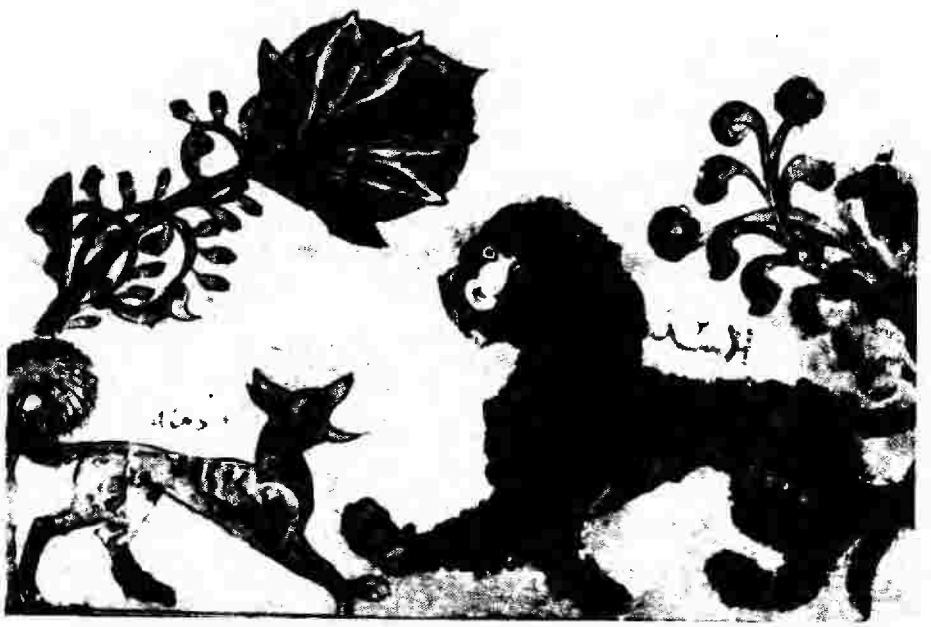

ومن هذه المجموعة شمعدان بمتحف الفنون الزخرفية بباريس عليه اسم صانعه داوود ابن سلامة الموصلى وتاريخ صناعته (٦٤٦هـ – ١٢٤٨م) .

الأوانى الزجاجية :

بلغت صناعة الأوانى الزجاجية قمة مجدها فى حلب ودمشق فى فترة حكم الأيوبيين . وكانت هذه الأوانى تزين بالزخارف المذهبة والمموهة بالمينا . ولقد ظهرت من هذه الفترة أوان زجاجية غاية فى الدقة والإتقان[١] . كذلك اشتهرت العراق ومصر كمراكز إنتاج لهذه الصناعة . ولقد انتشر استخدام زخارف الرسوم الآدمية والحيوانية التى كانت شائعة فى خزف الرى وقاشان فى العصر السلجوقى. وكانت الزخارف ترسم على الإناء بالمادة الذهبية، ثم تحدد الخطوط الخارجية للوحدات باللون الأحمر بعد أن تحرق فى الفرن، وتطلى بعد ذلك بطبقة المينا المتعددة الألوان (الأزرق والأحمر والأبيض). ويلاحظ تشابه الموضوعات الزخرفية الآدمية الموجودة على أوانى القرن الثالث عشر الميلادى مع زخارف الأوانى المعدنية .

التصوير :

يظهر فى بعض مخطوطات القرن الثالث عشر الميلادى بسوريا التأثر بالأساليب الكلاسيكية ، ويتضح ذلك فى نسخة من مخطوطة مقامات الحريرى صورت فى عام (٦١٩ هـ – ١٢٢٣م)، وترجع نسبتها إلى سوريا[٢]. ونشاهد فى إحدى الصور (شكل ١٥٢) فريقاً من الحجاج يسعون إلى أبى زيد السروجى ، ويلاحظ فى رسم الأشخاص تأثر الفنان بالمخطوطات البيزنطية التى كانت موجودة بسوريا . كما نلاحظ إغفال الخلفية وعدم توضيح الأرضية ، وتظهر الأشخاص بسحنة عربية بعيدة عن الشبه السلجوقى .

ومن أحسن مخطوطات القرن الثالث عشر كتاب « كليلة ودمنة » الذى يصور بعض القصص الهندية ، وقد قام بترجمتها إلى العربية « ابن المقفع » . ويصور هذا المخطوط ١٢٠٠ – ١٢٢٥م أحداثاً تدور فى عالم الحيوان (شكل ١٥٣) ، ويظهر من طريقة رسم الحيوانات والطيور تأثر الفنان بالأساليب الساسانية .

---

(١) تحدث الثعالبى فى كتاب « لطائف المعارف » ص ٩٥ عن شهرة صناعة الأوانى الزجاجية .
(٢) اتنجهوزن د. ما قبله ص ٧٩ – ٨٠

نرى مما سبق أن الأساليب السلجوقية المتبعة فى عصر الأتابكة استمرت فى الظهور فى العصر الأيوبى ، ولقد انتقلت هذه التقاليد السلجوقية إلى مصر على يد « صلاح الدين الأيوبى » الذى شب فى بلاط « نور الدين بن زنكى » حاكم دمشق. وشجع الأيوبيين هذه التقاليد الفنية على الاستمرار فى فترة حكمهم لسوريا والعراق. كذلك ظهر فى عصر الأيوبيين بعض التأثرات الفنية البيزنطية بالإضافة إلى العناصر السلجوقية .

ولقد انتقل كثير من الأساليب المعمارية التى اتبعت فى تلك الفترة إلى العصر المملوكى فى سوريا ومصر . ولقد تميز ذلك العصر بالاهتمام بالتحصينات الحربية الدفاعية . وذلك لكثرة الحروب التى تخللت عهد هذه الدولة .